

التياراتُ الفكريةُ في صدر الإسلام

للكاتب: إبراهيم مركات

طابع الحياة الفكرية :

اختص القراءان بكونه الكتاب السماوي الوحيد الذي نزل ليكون كتاب علم وعمل بمجرد نزول الآيات الأولى منه (سورة العلق) : وقد نزل القراءان ليضع حدا للتخلف الحضاري الشامل والذي اختلفت درجاته وأوضاعه بحسب الامم . غير أن ما يثير الاهتمام حقا ، هو أن هداية هذه الامم تنطلق من احدى اشدها تخلفا ، ثم تكون على يد شخص لا يقرأ ولا يكتب . ومن ثم فان طابع الحياة الفكرية في صدر الاسلام ينطلق من التوعية في اطار المعرفة والتوجيه الشامل للانسان في اخلاقه ومعاشه واكتسابه للخبرات واستقرائه للجزئيات وربط حياته المادية بالروحانية . لقد اجتاز صدر الاسلام مرحلة النشوء الفكري المبني على تجميع الجزئيات والارتباط في الوقت ذاته بالنصوص وبالواقع السياسي والعقلي والاجتماعي للمجتمع الاسلامي ، لان العرب ليسوا وحدهم في الميدان ، وعملهم قبل كل شيء ، السير مع القافلة التي تحمل البضاعة الفكرية للجميع والتي يظل القراءان والسنة هاديها الامين والعقل مفتاح تقدمها المكين . وهكذا روي عن الرسول وخلفائه عديد من الاحاديث أو الاقوال في تقدير العلم وما يتعلق بالفكر كقوله (ص) : اذا اعطي الناس العلم ومنعوا العمل وتحابوا بالالسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الارحام ، لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم (1) . وقال : فضل العلم خير من فضل العباداة . وقال علي : محبة العلم دين يدان به : به يكسب الانسان الطاعة في حياته ، وجميل الاحدثة بعد وفاته ، والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه (2) . ومن اقوال

(1) ابن عبد ربّه ، عقد ، 2 ، 80 .

(2) ن. م. ص. 69 .

عمر : تعلموا كتاب الله تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من اهله (3) ، ولا يكاد صحابي بارز أو مثقف ذو عطاء في الاسلام لم يرد له قول في اكتساب المعرفة إذا لم يكن من صناعتها . وذلك الى جانب التقدير العظيم الذي خص به العلم وأصحابه في القرآن . (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات) الى غير ذلك من الآيات العديدة .

وبهذه الروح انطلقت التوعية الفكرية والدينية في الاسلام من مسجد الرسول وبيته ومجالسه ثم من الصحابة والقراء الذين أصبحوا يعدون بالآلاف ويمارسون حقهم في النضال المذهبي . وهكذا فان أول نواة للجامعة في الاسلام هي المسجد النبوي بالمدينة والذي قام بدور الجامعة الشعبية والدينية ، كما كون آلاف الاطر في صدر الاسلام وبعده .

تنوعت المعرفة في العصر الراشدي الى فرعين :

1 - معرفة مكتسبة بالفطرة والتجارب السابقة للعرب .

2 - معرفة تخضع للحاجة المباشرة والبيئة العامة للمجتمع الاسلامي وهي في صدر الاسلام من عمل العرب ، مع مساهمة طيبة لعناصر من غيرهم . ويمكن أن ندخل في الصنف الاول ، الفراسة والقيافة وعلم الانساب وحتى الشعر ، بينما يشمل الصنف الثاني دراسة القرآن حفظا وتفسيرا والحديث والفقه والفلسفة الدينية والسياسية .

وكان لدى العرب من قديم معرفة طيبة بالانواء وطبائع الحيوان والنبات واستخراج المياه الجوفية وما يتعلق بالطبيعة التي تحيط بهم عموما ، وستدون هذه الاشياء تدوينا دقيقا ، ابتداء من أواخر القرن الاول الهجري لتكون معتمدا لدارسي اللغة وواضعي المعاجم ، ومن ثم فصدر الاسلام لم يكن بحاجة ملحة الى دراسة اللغة بكيفية مباشرة ، حيث ترك ذلك لمعلمي القراءان ، فيتعلم الاعاجم العربية عن طريق حفظه أو بمخالطة العرب ، واحتاج العرب الى الحساب ولكنه اقتصر على الموظفين المحاسبين يتعلمونه عن يمينه ، ولم يلتفت صدر الاسلام الى نشر او تلقين علوم لا تخدم العقيدة والمعاملات الشرعية اليومية ، ولذلك نستطيع أن نطمئن الى

(3) ن. م. ص. 76 .

ان الدور الذي قامت به النظريات المذهبية من خارجية وشيعية وغيرها ، سيكون على بساطته شكلا ومنطقا ، ذا تأثير عظيم في الانفتاح تدريجيا بعد صدر الاسلام ، على الفلسفة بمفهومها العميق والفكر العلمي بمعناه الواسع .

كذلك فان تلقين المعرفة يظل خارج نطاق المصحف القرآني ، مقصورا على الرواية والسمع والحفظ الشفوي ، ولذلك فان المشقة كانت كبيرة في نشر المعرفة على بساطتها شكلا ومحتوى ، اذ لا أحد تقريبا يتناول كتابا فضلا عن أن يؤلفه ، خارج المصحف . فمن غير المعقول أن نتحدث عن نهضة او انطلاقة علمية واسعة النطاق بالمفهوم الصحيح حتى للعصر الوسيط ، ولكن لا جدال في أن ما انتشر من معرفة عن طريق الاسلام في صدر الاسلام هو بالذات ما كان العرب يحتاجون اليه في ظروفهم الزمنية والمكانية ، بل هو شيء عظيم وطفرة مدهشة اذا قيست بالتخلف العربي المتجذر قبل الاسلام .

فلاول مرة بالنسبة لاغلبية العرب ستتحوّل المعرفة الى جهد يبذله العقل في التفكير والضبط والموازنة والتعليل والتعمق والى أشياء ترتبط بالاقتصاد والزراعة والحرب والتجارة والزواج والميراث والحقوق والواجبات ، ان كل ذلك يردد نصوصا ، ولكنه يفهم ويطبق ، وهذه مرحلة من العلم ليست بالشيء الهين .

1- القراءان :

ليس من شأن هذه الدراسة ان تستعيد قضايا جمع القراءان بتفصيل وما قيل في تدوين المصحف من روايات : فان المتفق عليه باختصار ان القراءان تم تدوينه في ثلاث مراحل :

1 - العهد النبوي الذي كان للرسول (ص) فيه كتاب وحي يدونونه كتابة من غير ان يدونه احدهم مجموعا .

2 - عهد ابي بكر الصديق الذي استعيد فيه التدوين في مصحف كامل انتقل الى عمر في خلافته ومنه الى ابنته حفصة .

3 - عهد عثمان الذي تبين فيه اختلاف الروايات بين الحفاظ ، ومن ثم اعيد التدوين من جديد بمقابلة الروايات المختلفة مع صحائف

حفصة ، واعطيت الاولوبة للهجة قريش بوصفها افصح اللهجات العربية ، وساهم في هذه المرحلة النهائية من حيث كتابة المصحف العثماني كل من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . ولا ندري ما وجه اختيار هؤلاء الصحابة بالذات لكتابة المصحف وليس فيهم من الانصار الا واحد هو زيد بن ثابت ، وهو على كل حال اعلامهم كفاءة واشدهم اتصالا بالرسول (ص) . ولم يكن الاجماع تاما على ترتيب السور ، فان لابن مسعود ترتيبا مخالفا ، ولابي بن كعب ترتيبا آخر ، وكل الترتيبين ذكره ابن النديم في الفهرست ، وعلى كل فترتيب السور لا يخضع لاي اتجاه محدد . وكان عبد الله بن مسعود يناهض عملية فرض المصحف العثماني على الامصار ، لان الخليفة عثمان أمر باحراق المصاحف التي تخالفه ، ورفض ابن مسعود تنفيذ تعليمات الخليفة في الكوفة .

وعلى اية حال فان معظم الروايات تم التنسيق بينها في المصحف العثماني بالرغم من خلاف جزئي في القراءات ، حيث يظهر ان الامصار لم تفرط في بعض القراءات الخاصة تمشيا مع حفاظها والملقنين لها . وفي جميع الاحوال يظل القرآن سليما في محتواه من اي تحريف او نقص او تزيد . وقد تمت عملية تدوين المصحف العثماني سنة ثلاثين (4) .

واتسع نطاق تحفيظ القرآن من عهد الخليفة عمر الذي كان يراعي في توزيع العطاء مقدار المحفوظ من القرآن (5) ، واشتد في ذلك في الحواضر والبادي حتى كان يأمر بعقاب من لا يحفظ منه شيئا ، بل أن بعض البدو ماتوا تحت ضربات السياط من أجل عدم حفظ نصيب من القرآن (6) .

واحتاج القرآن مع حفظه الى مفسرين يشرحون ما غمض منه ، وان كان فهم العرب في هذه الفترة لمحتواه أقرب وأوضح من فهم الاجيال اللاحقة ، وكلهم أو جلهم يعرف لهجة قريش التي هي اهم لهجات القرآن من حيث محتواها كما .

(4) ابن النديم ، فهرست ص : 45 ، ابن الاثير ، كامل 3 ، 55 ، ابن خلدون 2 ، 1019 .

علي حسن عبد القادر ، نظرة عامة في الفقه الاسلامي ص : 90 - 105 .

(5) ابن عبد ربه عقد 1 ، 266 .

(6) صالحاني ، رنات المثالث والمثاني 2 ، 273 .

وكان المفسر يدعى بالقاص . وكان أشهر المفسرين وأول من دون تفسيره هو عبد الله بن عباس الذي كان يلقي دروس التفسير على منبر البصرة (7) ، وكان القصاص يصحبون الجيوش في تنقلاتها لتفسير الآيات التي تتعلق بقضايا الجهاد والحياة اليومية .

2 - الحديث والفقه :

السنة النبوية تشمل أقوال النبي وأفعاله ، وأقواله هي الأحاديث التي لقاه في مجالس عامة أو خاصة أو سمعها منه أفراد منفردون ، وهي تتمم القرآن من حيث التفاصيل ، وتبدو السنة في مجموعها ضرورية للتعرف على الخطوط الأساسية للفقه الإسلامي من حيث العبادات والمعاملات ، وإذا فالفقه يظل في صدر الإسلام فقه قرآن وسنة بالدرجة الأولى ، ولكن دور الاجتهاد فيه مع ذلك دور طيب . والمحدثون في العصر الراشدي كثيرون منهم أبو هريرة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت والخلفاء الأربعة وعبد الله بن عمر وآخرون كثيرون رجالاً ونساء . ولكن أبرز رواة الحديث عائشة بنت أبي بكر وزوجة الرسول (ص) .

والواقع أن الفقه كان لا يزال بعيداً عن التجميع والتدوين ، بل أن مما يلفت النظر أن يسبق تدوين الفقه تدوين معظم مدونات الحديث الأساسية ، لأن النوازل كثيرة والمسلمون قد صاروا بحاجة إلى دراسات مفصلة لما يهمهم من القوانين الدنيوية ، وكل هذه الأشياء ستأخر إلى بداية العصر العباسي وما وراءها .

وقد اعتبر علي حسن عبد القادر (8) أن مصادر التشريع في العهد النبوي كانت هي : العرف العربي ، والقرآن واجتهاد الرسول .

وإذا راعينا وجود أعراف أخرى بالبلاد المفتوحة في العصر الراشدي فتصبح مصادر التشريع حينئذ هي : (1) العرف لدى المجتمعات الإسلامية . (2) القرآن . (3) السنة . (4) اجتهاد الصحابة وآراءهم . وهنا لا ينبغي أن يعتبر إلا الذين برهنوا عن تمرسهم بالقرآن والحديث

(7) جاحظ ، بيان ، 1 ، 345 .

(8) علي حسن ، نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص : 54 .

وممارسة الاحكام ، اذ ليس كل من نطق برأي او حكم او روى حديثا يضاف الى سلسلة الائمة .

ولما كان الاجتهاد يفتح بابا للخلاف عند تعدد الآراء ، فقد نشأ الخلاف بين كبار الصحابة أيضا في أمور معينة تتعلق بالعادات والعبادات ، ورد هذا الخلاف عند بعض المتأخرين الى مدى اجتهاد الصحابي في فهم القرآن او الحديث او أعمال النبي (ص) (9) . ومن ثم فلا يوجد عمليا أجماع حقيقي للصحابة في كل الاحكام والنوازل ، ولكن يمكن اعتبار رأي الاغلبية اجماعا (10) ، وبدون ذلك لا يصح ان يقال ان هناك اجتهادا في هذا العصر .

3 - الفلسفة الدينية والسياسية :

لم تبدأ أسس الفلسفة الدينية بالقرن الرابع الهجري ، ولا بالعصر الاول الذي ظهر فيه المعتزلة والاشاعرة ولا بالعصر الاموي الذي تجسمت فيه عقائد الخوارج . بل تنطلق هذه الفلسفة من القرآن الذي جادل اهل الكتاب والمجوس والطبيعيين ، وعلل الظواهر العلمية وربطها بالعقل والروح وأعطى للتصوف منطلقا من نبد مباهج الدنيا او عدم الاغترار بها ، وزكى قيمة العقل والفكر في كل ما يحيط بالانسان من ظواهر الكون والحياة ، ان الفلسفة الدينية هي قبل كل شيء ، فلسفة بيئية وتاريخية . فهي بيئية لانها ارتبطت بواقع المجتمع الاسلامي والمجتمعات التي تتعايش معه وتناهضه في الفكر والعقيدة ، وهي تاريخية لانها تناولت المنطق الجدلي حول قضايا الايمان ، والعقيدة لشعوب بينها من باد وانقرض ، وبينها من تطورا وحافظ على مفاهيمه القديمة . فليس عجيبا والحالة هذه ان يكون عصر الراشدين بما ضمه من تناقضات سياسية على الاخص ، عصر مراجعة لا فحسب لفلسفة الحكم التي لم يحدد العهد النبوي صيغتها كاملة خارج نطاق فكرة الشورى ، بل كذلك لموقف المسلم من الحياة ومن هؤلاء الذين لا يعتقدون اعتقاده في اطار مذهبي معين ، ان هذه المراجعة في العصر الراشدي لا تبطل أسس الاسلام كما وضعت في العهد النبوي ، ولكنها تقدم مفاهيم جديدة تختلف خدماتها للاسلام بين السلب والايجاب .

(9) ن . م . ص . 87 - 88 .

(10) ن . م . ص : 89 - 90 . وراجع سلسلة الرواة عن النبي (ص) في المنتخب من ذيل المذيل للطبري ص : 36 - 65 . ومن النساء : ن . م . ص : 81 - 87 .

4 - الفكر الصوفي :

يجد هذا الفكر ينطلق اذا :

— قبل كل شيء ، من القرآن الذي يحذر المسلمين من الاغترار بنعيم الدنيا ويعدهم بحياة اسعد في الآخرة ، اذا استعدوا لها بالعبادة والعمل الصالح ، وفي كل حال ليست دعوة القرآن والاسلام أصلا الى التشكف المطلق .

— ثانيا : سنة الاعتكاف الذي هو ملازمة المسجد اياما معدودة للعبادة والانقطاع للتأمل والذكر .

ثالثا : الدعوة الملحة من الراشدين بعد دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الى احترام المنقطعين للعبادة من غير المسلمين والى عدم الاطمئنان الى خيرات الفتوح والمغانم والتعامل المستمر مع الآخرة من طريق الاحسان وبناء المساجد والتطوع للجهاد مجردا عن أي غرض دنيوي .

فالتصوف الاسلامي الاصيل هو تصوف سني من عطاء الحضارة القرآنية وليس مجلوبا من افكار الهنود ولا الفرس ، وانما الذي طرا ان هذه الافكار وغيرها ستأتي في فترة لاحقة من طريق الدراسات الفلسفية وسيتأثر بها الفكر الصوفي في المشرق اكثر مما يتأثر بها الفكر المغربي .

ومع دعوة الرسول واغلب الصحابة الرئيسيين الى الاقتصار من متع الحياة على ما لا يصرف المومن عن اهتماماته الدنيوية والاجتماعية ولا عن تخصص وقت كاف للعبادة التي هي مجاهدة نفسية ، فان ابازر القفاري انفرد بنظرية التزام المجتمع بالزهد والتخلي عما عدا الحد الأدنى من القوت اليومي لصالح الجماعة التي هي بحاجة اليه ، ولم تمر هذه الدعوة كصيحة في واد ، فقد أحدثت دويا في اوساط المجتمع الاسلامي ، وكان لها اثرها المباشر والبعيد .

وابو ذر هو جندب بن جنادة (بضم الجيمين) من غفارة التي تنتمي الى كنانة (11) ، وهو خامس من دخلوا في الاسلام في العهد النبوي .

(11) حافظ عيسى ، 1 ، 33 .

وروى احاديث كثيرة عن الرسول (ص) . وانتقل الى الشام عند تولية ابي بكر الصديق ، وقيل ان عبد الله بن سبأ اتصل به ولفت نظره الى ما يقوله معاوية عامل الشام من ان المال مال الله ولا يقول مال المسلمين كأنه يريد ان يستأثر بهذا المال دونهم ويتعلق بالسلطة الالهية ، ودخل أبو ذر على معاوية فأخذ عليه ذلك والتزم معاوية أن يقول ان المال ما للمسلمين ، ثم دعا أبو ذر بالشام الى تنازل الأغنياء عن أموالهم للفقراء ، ووجد هؤلاء في ندائه قوة تساعد على حمل الأغنياء على التخلي عن أموالهم للفئات غير المحظوظة ، واخيرا اضطر معاوية حفاظا على سلطته ان يستأذن عثمان في ترحيله ، فأمر بنقله الى المدينة مع حسن معاملته .

ولما استقبله عثمان استفسره عما يشكو منه اغنياء الشام ، فقال : لا ينبغي ان يقال مال الله ، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا . فقال : يا أبا ذر، علي أن أقضي ما علي وأخذ ما على الرعية ، ولا ينبغي أن أجبرهم على الزهد وأدعوهم الى الاقتصاد . على ان أبا ذر وأصل دعوته بالمدينة ، ثم استأذن الخليفة في الاستقرار بضواحيها ، وخصص له عثمان ما يقوم به فكان لا يترك شيئا ويتصدق بما أخذ . أما معاوية فقد طرد أسرته التي التحقت به في الربرة من ضواحي المدينة ، وجرى بينه وبين كعب الاحبار نقاش بمحضر عثمان ، لان أبا ذر قال ان أداء الزكاة لا يكفي اذ لا بد ان يحسن الموسر الى الجار والقرىب والمحتاج ، فقال كعب الاحبار ، ان من ادى الفريضة برئت ذمته ، فشجبه أبو ذر . وكان أبو ذر يتردد على المدينة بطلب من الخليفة ، وكانت وفاته سنة 32 هـ . وقد اختبر كل من معاوية وعثمان صدق دعوته بالعطاء الكثير وتتبع مصيره فوجئوا لا يكاد يترك منه قوت يومه . وقد تكفل بأسرته بعد موته كل من صديقه عبد الله بن مسعود والخليفة عثمان ، وكان اخراج ابي ذر من المدينة ، من اهم المآخذ التي اخذت على عثمان خلال الثورة ضده ، وفي خضم هذه الثورة كان صوت الفئات الفقيرة التي وصفت بالغوغاء في المصادر الاسلامية أقوى الاصوات التي هتفت ضد تبذير ثروات الامة واستيلاء مجموعة من الانتهازيين على مقاليد الحكم (12) .

(12) راجع حول ابي ذر : طبري 5 ، 66 و 80 ، ابن الاثير ، كامل 3 ، 56 و 67 ، ابن تفرج ، نجوم 89 ، ابن خلدون 2 ، 1028 ، ووردت بعض اقواله في المعقد الفريد ، والبيان للجاحظ وغيرهما . وانظر ايضا ، الزركلي ، اعلام (جندب) .

وتعد نظرية ابي ذر ، في استفادة الجميع من ثروات المحظوظين اول دعوة اشتراكية ثورية في الاسلام . والتزام ابي ذر الصمت الى عهد عثمان له اكثر من دلالة على التطور السلبي الذي حصل في اعادة توزيع الثروات بعهد الخليفة عمر .

5 - التشيع :

هو مذهب القائلين بامامة علي وخلافته (نصا ووصية ، اما جليا واما خفيا واعتقدوا ان الامامة لا تخرج من اولاده) ، هكذا عرف الشهرستاني مذهب "التشيع" (13) الذي يختلف بين الاعتدال والتطرف .

على ان عليا اذا كان له مناصرون قبل توليه الخلافة ، فان دور المتطرفين منهم انما يبرز اكثر فأكثر بعد توليته ، وهم الذين تزعمهم عبد الله بن سبأ الذي كان يهوديا ثم أسلم نفاقا وفتح باب القلو في التشيع حتى زعم ان عليا حي لم يموت لان الذات الالهية حلت فيه وانه سيظهر مرة أخرى لتطهير الارض من الجور وان تناسخ الطبيعة الالهية تنتقل تباعا الى الائمة بعده وذلك ما يسمى بالرجعة (14) . ومعلوم أن فكرة الرجعة موجودة في الديانة اليهودية بالنسبة لموسى ، وفي المسيحية بالنسبة لعيسى ، لذلك كانت نظرية السبابة في هذا العصر المبكر من الاسلام عملا تخريبيا يتجلى فيه الاثر العميق للفكر اليهودي لا سيما بعد ترحيل يهود الحجاز الى الشام والعراق . ومن ثم فان فكرة المهدي المنتظر وجدت سوقا رائجة في الاوساط الشعبية بالعالم الاسلامي عبر القرون .

كذلك ظهرت الامامية في عهد علي ، بزعامة علي بن اسماعيل بن هيثم التمار ، وهم القائلون بامامة علي بالنص ومن غير تعريض بالوصف . ومما استدلوا به من اقوال النبي (ص) : أقضاكم علي ، وقالوا ان الامامة لا معنى لها الا ان يكون اقضى القضاة في كل حادثة على انهم لم يتفقوا في تعيين الائمة بعد الحسن والحسين وعلي بن الحسين . وان كانت هذه مرحلة لاحقة وليست مرحلة صدر الاسلام . وفيهم من طعنوا في كبار الصحابة

(13) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ص : 174 .

(14) ن . م . ص . مقرئزي - خط ط . 3 ، 310 .

واعتبروا الراشدين الثلاثة قبل علي مغتصبين للخلافة . وقد تفرق الامامية الى فرق كثيرة لا يهم تفصيلها وآراؤها هذه الدراسة .

ان التنظيمات الشيعية قد تعددت بعد العصر الراشدي لعدة أسباب منها التعاطف مع أسرة معينة من أهل البيت ومنها النفوذ الروحي لهذا الامام أو ذاك ، ودور التلاميذ والعاطفين ، وفي جميع (15) الاحوال كان الغلاة أقوى نفوذاً واكبر عدداً كما حدث بالشام والعراق وفارس ، لانهم في الغالب أحكم تنظيمًا وأميل الى العمل المسلح مع تنسيق النشاط الدعائي .

6 - المذهب الخارجي :

ولنقل المذاهب الخارجية ، لان بعض اختلافاتهم الرئيسية ظهرت في العصر الراشدي . وهذه الحركة مرت بثلاث مراحل :

اولا : مرحلة الطعن في التحكيم واعتزال علي وخصومه .

ثانيا : مرحلة الجدل مع علي وأنصاره .

ثالثا : مرحلة التمرد وأنشاء امامة تستظل الحركة بظلها .

ولقد فسر الشهرستاني معنى الخارجي بأنه كل من خرج عن الامام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة سواء في عهد الراشدين أو بعدهم (16) ، وعلى هذا فتفسير الشهرستاني له مدلول سياسي وديني معا ، لان الخروج عن السلطة القائمة يعني القيام بتحريك مضاد والتخلي عن الالتزام ببيعة المسؤول الاكبر في الاممة .

وبالرغم من كثرة الفرق الخارجية فان أهمها هي الازارقة والصفرية والاباضية ، وكلهم ظهروا اتباعا ، وقد تميز العصر الراشدي بظهور أول طائفة سبقت هؤلاء وسموا بالحكمة ، كما سموا بالحرورية ، ومنهم تكونت مجموعة الازارقة ، ومن زعماء المحكمة عبد الله بن الكواء ، وعبد الله بن وهب

(15) الشهرستاني م. م. س. ص. 162 . المقرئ م، ص 300

(16) شهرستاني م، س، ص : 114 .

الراسبي وعروة بن جرير . وطعن المحكمة في التحكيم في خلافة علي ، وقالوا بامامة غير القرشي وبامامة أي مسلم توفرت فيه الشروط المطلوبة لا سيما اقامة العدل ، ولذلك كانوا لا يطعنون في خلافة العمرين ويطعنون في عثمان ثم في علي لمجرد قبوله التحكيم .

ولكي يطبق المحكمة مذهبهم سياسيا كما سيطبقونه عقائديا ، فقد بايعوا بالامامة أحد زعمائهم وهو عبد الله الراسبي سنة 37 هـ .

ولم يتصد علي لمحاربتهم على الفور ، فقد جادلهم جدالا عقائديا اما مباشرة او عن طريق عبد الله بن عباس (17) الذي يعد أبرز مفكري الاسلام في العصر الراشدي . واذا كان العربي من طبيعته أن يجادل في مسائل الحكم كما دلت على ذلك احداث بيعة أبي بكر وقتنة عثمان فان قضية التحكيم، وبالتالي ظهور الخوارج فتح المجال لأول مرة لجدل عقائدي لم يات أبدا من أي تأثير اجنبي ، بل هو جدل داخل المجتمع العربي بالذات ، ثم أن الخوارج ينتقلون على الفور بعد وقائعهم مع علي والتي انهزموا فيها وقتل آلاف منهم الى عمان وكرمان وسجستان والجزيرة واليمن (18) ، وهناك يحظى المذهب الخارجي باقبال كبير لانه يرضي طموحات العناصر غير القرشية وغير العربية في اختيار الامام أو الائمة حسب ميثاقها المناهض للاوليغارشية .

واذا كان الاتجاه السياسي يجمع الخوارج على طريق واحد ، فان الاتجاه العقائدي المختلف ، يفرق بينهم الى حد يبدو فيه التناقض أحيانا، وبهذا الصدد يبدو الازارقة كأول فرقة متطرفة بين الخوارج ، وهم أنصار نافع بين الازرق من تلاميذ عبد الله بن عباس وأصدقائه القدامى ، ومن مذهبهم (19) :

اولا : جواز قتل الاطفال والقعدة أي المتخلفين عن القتال ، ونساء من ليس على مذهبهم .

ثانيا : استحلال الامانة ، أي امانة المخالفين للمذهب — على ان تكون فيثا .

(17) المبرد ، كامل ، 3 103 و 23 ، ابن عبد ربه عقد 2 ، 606 - 207 . وذكر ابن النديم في الفهرست ص : 272 ، مؤلفات متأخرة للخوارج .

(18) شهرستاني ، ملل 1 ، 117 .

(19) ابن حزم ، الفصل 4 ، 189 ، مقرئ خط 3 ، 307 ، شهرستاني ملل 1 ، 118 .

ثالثا : ابطال رجم الزانبي المحصن .

رابعا : فرض الصلاة والصيام على الحائض .

خامسا : الحكم بأن أطفال المشركين في النار مع آبائهم .

سادسا : تكفير مرتكب الكبيرة مع خلوده في النار .

سابعا : عدم جواز التقيّة قولاً وفعلاً .

ثامنا : تكفير علي .

على أن النشاط السياسي للازارقة لا يبرز الا ابتداء من ثورة عبد الله ابن الزبير ، وقد خالفهم النجدات ، وهم انصار نجدة ابن عويمر الحنفي الذي خرج باليمامة ، وقد جادل نافع بن الازرق ، وانشأ مذهباً جديداً انتشر في عهد ثورة عبد الله بن الزبير ، وهم معتدلون بالقياس الى الازارقة (20) .

ومن المخالفين الاولين لعبد الله بن وهب جماعة النخيلة الذين ظهروا بعد الحروريين وكانوا قد فضلوا التزام الحياد ونجاة علي وخصومه، ولكنهم ما لبثوا أن تمردوا على علي ، فقاتلهم ولم يبق منهم الا أفراد قلائل (21) .

وبالرغم من ظهور فرق كثيرة من الخوارج فقد انقرض معظمها بعد ظهورها بفترة تختلف من جيل الى بضعة أجيال ، فالازارقة انتهى أمرهم بعد حوالي عشرين سنة من ظهورهم . وتحدث ابن حزم عن اختفاء ، جميع النزعات الخارجية ، في القرن الخامس (11 م) باستثناء الصفريّة والاباضية .

ويمكن القول دون مجازفة ، ان حركة الخوارج تعبير ذاتي وتلقائي عن اتجاهات المجتمع البدوي المتحمس للإيمان الصلب بقطع النظر عما تحمله الروح العقائدية من بعد عن الرافة والحرية المذهبية ، بينما تجد الشيعة انصارها على الخصوص في المراكز الحضرية التي يمكن ان تحتضن

(20) مبرد ، كامل ، 3 ، 105 و 124 - 91 و 170 - 171 ابن عبد ربه ، عقد 2-12-2 مقريزي ، خطط ، 3 ، 307 .

(21) مبرد ، كامل ، 3 ، 140 .

الاسرار وتأخذ بالتقية أكثر مما هو الشأن لدى المجتمع البدوي الذي يميل الى الوضوح والصراحة ، وان لم يكن هذا الحكم مطلقا بالنسبة للمجتمعين معا .

وما من دعوة في الاسلام وجدت نصيرا قويا في المرأة كدعوة الخوارج . ان المرأة تذكرنا هنا بأختها المتأخرة في الثورة الفرنسية والتي عبرت ايما تعبير عن استيائها من الظلم والتجوع والهيمنة البورجوازية وهكذا دفعت المرأة الخارجية بالرجل الخارجي انطلاقا من العصر الراشدي الى الثورة والمغامرة والتضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، وجادلت الحكام مثله وخطبت وعبرت بالشعر وبحضورها في المعامع عن نفس الطموحات التي دافع عنها الرجل (22) .

7 - الادب :

لقد يكون تجوزا ، الحديث عن الادب كمستوى معين للثقافة العامة يبرز الشعر والنثر فيهما بأوفر نصيب فحتى العهد الاموي لن يحظى بهذا الصنف من المثقفين ، على نطاق واسع على الاقل ، ومع ذلك فالشعر والنثر ما يزالان اقرب الى الفطرة منهما الى الصنعة ، فهذا الشعر والنثر غير المصنوع أو المصنع ، مع وجود مثقفين يتوفرون على معارف عامة من مستوى عال هو الذي يجعلنا ندرك أن ثمة بوادر لوجود أدب فطري في صدر الاسلام كالذي يمثله زيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وكعب الاحبار والذين لقحوا مواهبهم في الشعر والنثر بثقافة مستمدة من الاسلام قرآنا وسنة واجتهادا . ثم هناك في الصف الآخر شعراء ، كرسوا حياتهم للشعر، بينما نجد في خطب الراشدين وعدد من قادة الجيوش والولاة وغيرهم نماذج جيدة للنثر المطبوع المتأثر بمصطلحات الدين شأن الشعر أيضا في اغلب الاحوال . لقد كان العصر اذا ، عصر ادب اسلامي يستبعد الغزل والخمريات ويحتفظ بما عداها من فنون الشعر التقليدية ، بل أن المدح لا يجد له مجالا كافيا لدى حكام أغلبهم يمارس شعائر الدين بصرامة ولا يمكن ان ينقاد للمتملقين حيث يوجد رأي عام يرفع عقيرته ضد الاسراف وسوء التصرف في أموال الامية ، ومع ذلك فان المدح لم يختف ، ولا سيما ما كان الى الصديق اقرب منه الى التكسب .

(22) جاحظ ، بيسان ، 375 1 ، مبرد كامل ، 3 ، 146 .

وفد تعائش الشعر والنشر مع الاحداث السياسية وكانا لسانها المعبر في عصر لم يوجه اهتمامه الا لتدوين القرءان وحده تقريبا . وهكذا فان مقتل الهرمزان على يد عبد الله بن عمر اثار جدلا حقيقيا بين الذين اتهموه بقتل شخص لم يتأكد تأمره على قتل عمر ، وبين عبيد الله وانصاره ، وفي ذلك يقول زياد بن لبيد الانصاري يخاطب عبيد الله (23) :

اصبت دما والله في غير حله حراما وقتل الهرمزان له خطر

واسهم الخوارج بوفير حظ في اغناء الشعر السياسي بقصائدهم العفوية التي تعبر عن ثورتهم واسترخاسهم للدماء البشرية مهما كانت بريئة ، فبعد مقتل علي الذي كان ضمن شروط صداق قطام لقاتله ابن ملجم قال احدهم : (24)

فلم ارمهرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام بين غير مبهم :
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بالحسام المسمم
فلا مهر اغلى من علي وان علا . ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

وقال ابن ابي مياس المرادي الخارجي حول مقتل علي : (25)

ونحن خلعنا ملكه من نظامه بضربة سيف اذ علا وتجبـرا
ونحن كرام في الصباح اعززة اذا المرء بالموت ارتدى وتأزرا

وكان اثرى فنون الشعر عطاء في هذا العصر هو الشعر الحربي الذي تناول حروب العرب الداخلية كحروب الردة وصفين ، والخارجية كحروب الشام والعراق ، وكانت الانتصارات والاعمال البطولية مناسبة للتفاخر والتباهي بين الاوساط العربية ، حيث تظل المؤثرات القبلية بعيدة عن أن يزحزحها الاسلام عمليا وان حاربها شريعة وفكرا .

يقول الطاهر بن ابي هالة الذي مزق جموع قبيلة « الاخابت » وانصارهم في حروب الردة بساحل تهامة : (26)

(23) طبري 5 ، 41 ، 42 ، ابن الاثير ، كامل 3 ، 39 ، 40 .

(24) مقدسي ، بد 5 ، 233 .

(25) ابن الاثير ، 3 ، 198 .

(26) ابن الاثير ، 2 ، 254 (مع تعليق محققه) .

فلم ترعيني مثل يوم رأيتـــــــــــــــه
قتلناهم ما بين قنة خاــــــــمـــــــــر
وفئنا بأموال الاخابت عــــــــنـــــوة

بجنب صحار في جموع الاخابث
الى القيعه الحمراء ذات النبائث
جهاراً ولم تحفل بتلك الهتاھٹ

ولم يكن الظاهر بن ابي هالة هو القائد الوحيد الذي أسهم في الشعر الحربي ، بل لقد كانت موضة العصر أن يتولى القادة أنفسهم التعبير عن مفاخرهم الحربية ، وهذا المثنى بن حارثة من أبرز القادة في عهد أبي بكر وعمر يقول مفاخرًا بكبس سوق الخنافس قرب الانبار بالعراق حيث استولى على أموال « بكر » النصرانية (27) :

صبحنا بالخفافس جمع بكر
بفتيان الوغى من كل حي
نسفنا سوقهم والخبيل رود
وحيا من قضاة غير ميل
تباري في الحوادث كل جيل
من التطواف والشرب البخيل

ونحن لا نجد في مثل هذا الشعر ما يميزه عن مفامرات عنثرة واضرابه من شعراء الجاهلية . وأعطت معارك القادسية فيضا من الشعر جرى على لسان قواد من الجيش وغيرهم من المحاربين . وتميز هذا الشعر بنصسه على أسماء عدد من قادة الفرس البارزين الذين سقطوا صرعى على يد قائلي الشعر ، يقول طلحة بن خويلد الاسدي (8) :

أنا ضربت الجالينوس ضربة حين جواد الخيل وسط الكبسه

وأنشد زهير بن عبد شمس البجلي (29) :

أوديت بالسيف عظيم الفرس
أطعت ربي وشفيت نفسي

ونسبت لمحارب مجهول الاسم قصيدة افتتحها بالنسيب ثم وصف أهوال المعركة وذكر أسماء بعض الشهداء (30) :

(27) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة خنافس .

(28) بلاذري ، فتوح ، 363 .

(29) ن. م. وص .

(30) ياقوت م، س، مادة قاده سية .

إذا برزت منهم إلينا كتيبة اتونا بأخرى كالجبال تمور
فضاربتهم حتى تفرق جمعهم وطاعت أني بالطعان مهير
وعمر أبو نور شهيد ، وهاشم وقيس ونعمان الفتى وجير

ويظهر أن هؤلاء الشهداء كانوا من جماعة ذوي الرأي والفصاحة الذين طلب منهم أن يتولوا « تحريض الناس على القتال » (31) بل إن مما يثير الانتباه أن حضور الشعراء في حروب القادسية كان مطلوباً بصفة رسمية ، حيث كان من بينهم الشماخ والحطيئة والعبدي وعبدة بن الطيب وآخرون (32) . وإذا عرفنا أن معارك القادسية كانت في عهد عمر بن الخطاب ، تأكدنا من أن الشعر لم يحارب إلا إذا كان للمجئون والمتع المحرمة . وقد نالت مختلف المعارك ضد الفرس والروم والفئات التي حاربها العرب ، نصيبها من الانتاج الشعري الذي يظل مطبوعاً في جملة بطابع الفخر والارتياح لمصرع الآخرين ، دون أن يتدخل فيه الحس الديني بمؤثرات تستحق الذكر ، خلافاً لأبواب أخرى من الشعر ، بل إن أدب الخوارج الذين يقاتلون أخوانهم المسلمين أغرق في المؤثرات الدينية من أدب غيرهم .

واتخذ الشعر في حرب الجمل اتجاهها خاصاً من حيث الشكل ، فهو في أكثره رجز عادي أو مكون من ثلاثة أقطار ، والشعر من هذا النوع أقرب منلاً وأكثر عفوية ، أما من حيث المضمون ، فهو أما تعبير عن التضامن مع عائشة وأنصارها وتنويه بعثمان ، وأما وقوف بجانب علي وقضيته ، مع هجاء عائشة كسيدة أولى للامة ، اقحمت نفسها في حرب أخوة ، ولكنه في عدة نماذج يعطي للروح العشائرية الدفينة منعشاً لم تكن لتجده في الحروب التي قامت ضد عدو مشترك . وعلى كل فإن أدب « الجمل » يمثل نموذجاً لشراسة الحرب التي خاضها الفريقان ولتصلب كل منهما في موقفه ، قال حكيم (بضم أوله) بن جبلة من أنصار علي وقد قطعت رجله وهو لا يزال مصمماً على القتال :

أقول لما جد بي زماعي للرجل : يا رجلي لن تراعي ،
أن معي من نجدة ذراعي

(31) ابن خلدون ، 2 ، 928 .

(32) ن. م. وص .

ولنمر ان الهمداني في نفس الموقعة (33) :

جودت نفسي في رجـال الازد اضرب في كهولهم والمـرد
كل طويل الساعدين نهـد

وقال شخص يدعى الحارث من بني ضبة من انصار عائشة (34) :

نحن بنو ضبة اصحاب الجمل ننعي ابن عفان بأطراف الاسل
الموت أحلى عندنا من العسل ردوا علينا شيخنا ثم بجـل

وانشدت والدة شاب من انصار علي تعرض بموقف عائشة (35) :

لا هم ان مسلما دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأهم قائمة تراهـم يأتـمرون الفـي لا تنـهاهم
قد خضبت من علق لحاهـم

وقد سالت دماء المتحاربين غزيرة في حرب صفين التي تكشفـت هي
الاخرى عن أدب شعري له مميزات الادب الحربي عامة في هذا العصر ،
ولكن الرجز فيه أقل تداولاً منه في حرب الجمل ، فهل كان الجمل نفسه
ملهما لا شعوريا لمنشدي الرجز الذي كان أول ما استعمل من الأوزان في
الجاهلية لحذاء الجمل نفسه ؟

وممن نسب اليهم انتاج شعري في هذه المناسبة علي بن أبي طالب
الذي قال في معرض التنويه بإحدى فرق جيشه (36) :

اذقت ابن حرب طـننا وضرايبنا بأسيافنا حتى تولى وأحجمـا
جزى الله قوما صابروا في لقائهم لدى الموت قوما ما أعف وأكرمـا

(33) طبري ، 5 ، 208 .

(34) ن. م. ص. 209 .

(35) ن. م. ص. : 206 ، وانظر ما يتعلق بأدب موقعة الجمل في ن. م. ص. : 177-223 .

(36) ابن الأثير ، كامل ، 3 ، 152 ، وانظر بعض ما قيل في صفين في ن. م. ص. ، 741 - 165 .

واذا كان هناك من شعر يتسم ضرورة بالصدق ونيل العاطفة بعيداً عن
قعقة الاوصاف البراقة فهو شعر الرثاء الذي تقدم نماذجه المخصصة
لتأبين الرسول عليه السلام صورة تطابق تماماً عواطف انصار الاسلام
ورسوله ، ومن هذه النماذج ما قالته صفية بنت عبد المطلب عممة
الرسول (ص) (37) :

الا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا برا ولم تك جافينا
وكنت رحيماً هادياً ومعلماً لي بك عليك اليوم من كان باكياً
صدقت وبلغت الرسالة صادقاً ومث صليب الغود ابلج صافياً

وشعر حسان بن ثابت أغزر شعر قبل في الرسول وقد كان لسان
حاله تجاه خصوم النبي والاسلام . ومن رثائه (38) :

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد
تقطع عنهم منزل الوحي والهدى وقد كان ذا نور يغور وينجد

وليس أحسن تعبير عن فجيرة الجماهير في وفاة عمر من قول
زوجته عائكة (39) :

فعمتني المنون بالفارس والمعل ثم يوم الهياج والتأبيب
قل لاهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كأس شعوب (40)

وقد رثى عمر ، الشاعر الشماخ وآخرون (41) . وجمع حسان بين
الدعوة الجاهلية في الاخذ بالثار ، والعاطفة الدينية ، في رثائه لعثمان (42):

من سره الموت صرفاً لا مزاج له فليات ماسدة في دار عثماننا
لتسمعن وشكياً في ديارهم الله اكبر يا تارات عثماننا
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآننا

(37) العمري ، روضة ، ص : 94 .

(38) مقدسي ، بدء ، 4 ، 69 .

(39) عمري ، م ، س ، ص ، 193 .

(40) يقارن بما في : طبري 5 ، 28 ، 29 ، ابن الاثير 3 ، 96 ، 97 .

(41) مقدسي بدء 5 ، 194 .

(42) ابن عبد ربه ، عقد ، 5 ، 45 ، 46 .

وقد دخل الجدل بين أنصار عثمان وخصومه ميدان الرثاء الذي دعا الى الاخذ بثار عثمان على لسان الاولين ودافع عن قضية علي على لسان الآخرين (43) ، وكان أبو الاسود الدؤلي من أقرب الناس الى علي ، وكان يعتز بتشعيه له ، وخاطب معاوية في معرض رثائه لعلي بقوله (44) :

الابلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتين
أفي شهر الصيام فجعثموننا بخير الناس طرا أجمعيننا ؟
قتلتهم خير من ركب لامطايبا ورحلها ومن ركب السفيننا

أما الخوارج ومعاوية فقد هناؤا أنفسهم بمقتل علي الذي مزق جموعهم بعد محاولات غير ناجحة لاختضاعهم بالحجة والتفاوض (45) ، ودافع بكر بن حسان الباهري عن شريعة الاسلام في شخص علي مهاجما في ذات الوقت قاتله ابن ملجم ، وهكذا يجمع شعر صدر الاسلام في هذا الباب شمائل الهالك وهجو أعدائه (46) :

قل لابن ملجم والاقدار غالبية هدمت للدين والاسلام أركاننا
قتلت أفضل من يمشي على قدم وأعظم الناس اسلاما وإيماننا
واعلم الناس بالقرءان ثم بما سن الرسول لنا شرعا وتبياننا
صهر النبي ومولاه وناصره اضحت مناقبه نورا ، وبرهاننا

والحق ان المصطلحات والمعاني الاسلامية لم تنتظر العصر الراشدي لتبدأ في التأثير على الشعر العربي الاسلامي ، بل انها لتظهر بسرعة في العهد النبوي الذي يتواجه فيه أنصار الاسلام مع خصومه بالحرب اللسانية والميدانية معا ، وقد أوردت كتب السيرة والتاريخ الاسلامي عدة نماذج من هذا الشعر الذي يمكن ان نعهده اول سجل تاريخي مباشر وجزئي للعهد النبوي .

أما ميدان الهجاء فقد توجه الى أشخاص بذاتهم وهم في الاغلب الاعم من كبار الشخصيات ، واستهدف الرسول عليه السلام لحملات ابن

(43) طبر 5 ، 150 - 151 و 6 ، 87 ، ابن الاثير 3 ، 96 - 97 .

(44) طبري 6 ، 87 .

(45) مقدسي 5 ، 234 .

(46) ابن الاثير 3 ، 199 ، راجع نماذج من شعر الخوارج خصوصا الصفحات 5 - 14 ، من كتاب شهر الخوارج لاحسان عباس .

الزبيري الذي أسلم فيما بعد (47) ، كما تناول الهجوم معاوية وعائشة وعلياً وآخرين ، وعلى العموم لم يكن هجواً فزيولوجياً بقدر ما كان انتقاداً مواقف وتصرفات ، ولا شك أن الحطية بما عرف عنه من بذاءة لسان وروح نفعية يعد سيد الهجائين والمداحين معا ، ومع ذلك لم يسعه وقد ارتد هو الآخر عن الإسلام إلا أن ينتقد خلافة أبي بكر دون شخصه (48) :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فبالعباد الله ، ما لا بي بـكـر ؟
أيورثها بكر إذا مات بعـده ؟ وتلك ، لعمر الله ، قاصمة الظهر !

لقد ظل الشعر في عامته خلال صدر الإسلام شعر نضال ثم شعر قضايا يدافع عنها هذا الجانب أو ذاك في مختلف الفنون على قلتها حينئذ ، وتأخذ القضية باهتمام الجميع وبإصرار ، ودون تصنع ، ولذلك كان الأدب هنا تعبيراً جيداً عن أوضاع الجماهير وتطلعاتها السياسية والمذهبية ، ولكنه يخضع لما تخضع له مظاهر الحياة العامة كلها وهو التوجيه الديني وأحكام الشريعة التي لا تداري المجنون العلني كما لا ترتضي مجنون الخفاء.

وأما النثر فقد استأثر بمعظمه المسؤولون خلفاء وقادة جيوش وولاة ، أو على الأقل فهو جل ما حفظه الرواة وأبقت المصادر ، ومن نماذجه الخطب والمعاهدات والمراسلات خصوصاً التوجيهات الإدارية والسياسية ، وكذا الوصايا وبعض الأقوال المبنية على صدق التجربة وقد تذهب بعيداً في اغوار النفس البشرية . وما من شك في أن القراءان والحديث قوي في نثر العهد الراشدي ، لا سيما من حيث اقتباس آيات القراءان وبعض الأحاديث ، وعلى العموم فالخطب والوصايا والتعليمات تهتم بالدعوة إلى التقوى والإيمان والتزام العدل ، والتذكير بنعمة الإسلام ودوره في توحيد المجتمعات المومنة والتخفيف من سوء المصير في الآخرة ، وتحض المسؤولين في الأقاليم على العناية بالفئات الضعيفة وصرف أموال الأمة فيما استحقت له .

(47) هناك نماذج كثيرة من شعر ابن الزبيري في السيرة النبوية لابن هشام وكذا في تاريخ الطبري .

(48) صالحاني ، رنات المثالث ، والمثاني ، 2 312 .

وفيما يلي بعض النماذج :

أولاً : من خطبة لعمر (49) :

« ان الله عز وجل قد ولاني امركم ، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، واني اسأل الله أن يعينني عليه ، وان يحرسني عنده كما حرسني عند غيره ، وان يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ، واني أمرؤ مسلم وعبد ضعيف الا ما أمان الله عز وجل ، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً ان شاء الله انما العظمة لله عز وجل ، وليس للعباد منها شيء ... » .

ثانياً : عهد عياض بن غنم لاهل الرها من اراضي الروم المفتوحة (50):

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لاهل الرها اني امنتهم على دمائهم واموالهم وذرائعهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم ، اذا أدوا الحق الذي عليهم : ان يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا شهد لاله وملائكته والمسلمون ... » .

ثالثاً : كتاب عثمان الى اهل الامصار يستمدهم ضد خصومه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه بالحق بشيراً ونذيراً ، فبلغ عن الله ما أمره به ، ثم مضى وقد قضى الذي عليه وخلف فينا كتابه ، فيه حلاله وحرامه ، وبيان الامور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا ، فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه ، وعمر رضي الله عنه . ثم ادخلت في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملا من الامة . ثم أجمع اهل الشورى عن ملا منهم ومن الناس ، على غير طلب مني ولا محبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون تابعا غير مستتبع ، متبعا غير مبتدع ، مقتديا غير متكلف ، فلما انتهت الامور وانتكث الشر بأهله ، بدت صفائن واهواء ، على غير اجرام ولا ترة فيما مضى ، الا امضاء الكتاب ، فطلبوا امرا وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا علي أشياء مما كانوا يرضون ، وأشياء عن ملا من اهل المدينة لا يصلح غيرها ، فصبرت لهم نفسي ، وكففتها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع ، فازدادوا على الله

(49) بلاذري ، فتوح ، ص : 240 .

(50) طبري ، 5 ، 105 .

جراة ، حتى اغاروا علينا في جوار رسول الله (ص) وحرمه وارضى الهجرة ، وثابت اليهم الاعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد ، إلا ما يظهرون . فمن قدر على اللحاق بنا فليحق » .

رابعا : فقرة من كتاب عائشة زوجة الرسول (ص) الى أهل الكوفة خلال استعدادها لمعركة « الجمل » (51) :

« أما بعد ، فاني أذكركم الله عز وجل والاسلام : اقيموا كتاب الله باقامة ما فيه . اتقوا الله واعتصموا بحبله ، وكونوا مع كتابه . فانا قدمنا البصرة فدعوناهم الى اقامة كتاب الله باقامة حدوده ، فأجابنا الصالحون الى ذلك ، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح ، وقالوا : لتنبعنكم عثمان ، ليرتدوا الحدود تعطيلًا ، فعاندوا ، فشهدوا علينا بالكفر ، وقالوا لنا المنكر ، فقرانا عليهم : (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم) . فتركناهم وذلك ، فلم يمنع ذلك من كان على رأيه الاول من وضع السلاح في أصحابي ... » .

خامسا : فقرة من وصية علي لاسرته وقد كتبها أو بالاصح أملاها (52) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب : أوصى انه يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ثم أن صلاتي ونسكي ومحياي ، ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا من المسلمين .

ثم أوصيك يا حسن ، وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فاني سمعت ابا القاسم (ص) يقول : أن صلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام .

(51) ن . م . ص : 181 .

(52) ن . م . ج . 6 ، 85 .

انظروا الى ذوي ارحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب. الله الله في الايتام ، فلا تمنوا أفواههم ، ولا يضيعن بحضرتكم ، والله الله في جيرانكم ، فانهم وصية نبيكم (ص) ما زال يوصي (به) حتى ظننا انه سيورث (هـ) ، والله الله في القراءان فلا يسبقنكم به الى العمل به غيركم ... » .

هذه بعض النماذج من نثر العهد الراشدي التي لو تم تجميعها لكونت مجلدا ضخما يمثل قيمة خاصة في دراسة هذه الفترة لا من الناحية الادبية فحسب ، بل ومن النواحي السياسية والاجتماعية والاتجاهات المذهبية ايضا ، وما يقال في النثر يقال في الشعر ايضا ، وخلافا للرأي الشائع بأن هذا العصر عصر مخضرمين فهو ليس كذلك الا بالنسبة لقسم من أحيائه، والا فان القسم الاكبر ممن يمثلهم جيل علي ولاحقوه ، انما فتحو عيونهم في احضان الاسلام وتأثروا به واثروا في اتجاهاته بالرغم من بعض الجذور العميقة التي خلفتها الافكار القبلية التي لا يختفي الكثير منها بسهولة في المجتمعات البدوية خاصة .

مصادر ومراجع :

- 1 - ابن الاثير علي بن محمد الجزري : الكامل ، تحقيق عبد الوهاب النجار - القاهرة ، 1348 هـ .
- 2 - ابن تغرى جمال الدين يوسف الاتاكي : النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب - القاهرة (نسخة مصورة) .
- 3 - ابن حزم علي بن احمد : الفصل في الملل والنحل . دار المعرفة - بيروت ، 1395 هـ - 1975 م .
- 4 - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد : كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر .. (المتداول باسم تاريخ ابن خلدون) . تحقيق ص. د. المنجد . دار الكتاب - بيروت ، 1956 م .
- 5 - ابن عبد ربه احمد بن محمد : العقد الفريد ، تحقيق م. س. العريان - القاهرة ، 1372 هـ - 1953 م .
- 6 - ابن النديم محمد بن اسحاق : الفهرست ، المكتبة - القاهرة ، د. ت .

- 7 - البلاذري أبو العباس أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ، تحقيق الاخوين الطباع ، دار النشر للجامعيين - بيروت ، 1377 هـ - 1957 م .
- 8 - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر : البيان والتبيين ، تحقيق السندوبي ، المكتبة التجارية - القاهرة ، 1375 هـ - 1956 م .
- 9 - (الحافظ) الذهبي محمد بن أحمد : العبر في خبر من غبر ، تحقيق ص. د. المنجد - الكويت ، 1960 م .
- 10 - الزركلي خير الدين : الاعلام ، ط. ثالثة - القاهرة ، 1376 هـ - 1956 م .
- 11 - الشهرستاني محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ، تحقيق م. سيد كيلاني مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ، 1387 هـ - 1967 م .
- 12 - صالحاني (الاب) انطون اليسوعي : رنات المثلث في روايات الاغاني ج : 2 ، المطبعة الكاثوليكية - بيروت 1923 م .
- 13 - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الامم والملوك . والمنتخب من ذيل المذيل ، نسخة مصورة - بيروت عن طبعة الحسينية بمصر .
- 14 - علي حسن عبد القادر : نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي ، دار الكتب الحديثة - القاهرة ، 1965 م .
- 15 - العمري ياسين بن خير الله : مذهب الروضة الفيحاء ، تحقيق رجاء السامرائي ، دار الجمهورية - بغداد ، 1386 هـ - 1966 م .
- 16 - المبرد أبو العباس أحمد بن زيد : الكامل المبرد ، تحقيق ابراهيم الدلجموني ، المطبعة الازهرية - القاهرة ، 1339 هـ .
- 17 - المقدسي مطهرين مطهر : البدء والتاريخ ، نسخة مصورة عن طبعة باريز المنشورة سنة 1899 م .
- 18 - ياقوت شهاب الدين بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، دار صادر - بيروت ، 1376 هـ - 1957 م .